

تفسير ابن كثير

هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره وهو الخالق لكل شيء القاهر لكل شيء المقتدر على كل شيء فقال : { قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا } أي نظراء وأمثالا تعبدونها معه { ذلك رب العالمين } أي الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى : { خلق السموات والأرض في ستة أيام } ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء فذكر أنه خلق الأرض أولا لأنها كالأساس والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده بالسقف كما قال D : { هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات } الآية فأما قوله تعالى : { أنتم أشد خلقا أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعا لكم ولأنعامكم } ففي هذه الآية أن دحى الأرض كان بعد خلق السماء فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص وبهذا أجاب ابن عباس B فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية من صحيحه فإنه قال : وقال المنهال عن سعيد بن جبير قال : قال رجل لابن عباس B هما إني لأجد في القرآن أشياء تختلف علي قال : { فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون } { وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون } { ولا يكتُمون } حديثا { } وإنا ربنا ما كنا مشركين { فقد كتموا في هذه الآية وقال تعالى : { أنتم أشد خلقا أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها } فذكر خلق السماء قبل الأرض ثم قال تعالى : { قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين } إلى قوله { طائعين } فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء قال : { وكان إنا غفورا رحيمًا } { عزيزا حكيمًا } { سميعا بصيرا } فكأنه كان ثم مضى فقال ابن عباس B هما { فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون } في النفخة الأولى ثم نفخ في الصور { فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء } { فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون بينهم في النفخة الأخرى } { وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون } وأما قوله : { وإنا ربنا ما كنا مشركين } { ولا يكتُمون } حديثا { فإن الله تعالى يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون تعالوا نقول لم نكن مشركين فيختم على أفواههم فتنتطق أيديهم فعند ذلك يعرف أن الله تعالى لا يكتُم حديثا وعنده { يود الذين كفروا } الآية وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحى الأرض ودحيتها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد والاكمام وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله تعالى دحاها وقوله : { خلق الأرض في يومين } فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة

أيام وخلق السموات في يومين { وكان ا غفورا رحيمًا } سمى نفسه بذلك وذلك قوله أي لم يزل كذلك فإن ا تعالى لم يرد شيئًا إلا أصاب به الذي أراد فلا يختلفن عليك القرآن فإن كلا من عند ا D قال البخاري حدثني يوسف بن عدي حدثنا عبيد ا بن عمرو عن زيد بن أبي أنيسة عن المنهال هو ابن عمرو بالحديث وقوله : { خلق الأرض في يومين } يعني يوم الأحد ويوم الإثنين { وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها } أي جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس وقدر فيها أقواتها وهو ما تحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس يعني يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع اليومين السابقين أربعة ولهذا قال : { في أربعة أيام سواء للسائلين } أي لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه وقال عكرمة ومجاهد في قوله D : { وقدر فيها أقواتها } جعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها ومنه العصب باليمن والسابوري بسابور والطيالسة بالري وقال ابن عباس وقتادة والسدي في قوله تعالى : { سواء للسائلين } أي لمن أراد السؤال عن ذلك وقال ابن زيد معناه وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين أي على وفق مراده من له حاجة إلى رزق أو حاجة فإن ا تعالى قدر له ما هو محتاج إليه وهذا القول يشبه ما ذكره في قوله تعالى : { وآتاكم من كل ما سألتموه } وا أعلم وقوله تبارك وتعالى : { ثم استوى إلى السماء وهي دخان } وهو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض { فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها } أي استجيبا لأمرى وانفعلا لفعلي طائعتين أو مكرهتين قال الثوري عن ابن جريج عن سليمان بن موسى عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى : { فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها } قال : قال ا تبارك وتعالى للسموات أطلعي شمسي وقمري والنجوم وقال للأرض شققي أنهارك وأخرجي ثمارك { قالتا أتينا طائعين } واختاره ابن جرير C قالتا أتينا طائعين أي بل نستجيب لك مطيعين بما فينا مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعا مطيعين لك حكاة ابن جرير عن بعض أهل العربية قال وقيل تنزيلا لهن معاملة من يعقل بكلامهما وقيل إن المتكلم من الأرض بذلك هو مكان الكعبة ومن السماء ما يسامته منها وا أعلم وقال الحسن البصري لو أبيا عليه أمره عليه لعذبهما عذابا يجدان ألمه رواه ابن أبي حاتم { فقضاهن سبع سماوات في يومين } أي ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين أي آخرين وهما يوم الخميس ويوم الجمعة { وأوحى في كل سماء أمرها } أي ورتب مقررًا في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو { وزينا السماء الدنيا بمصابيح } وهي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض { وحفظا } أي حرسًا من الشياطين أن تستمع إلى الملائكة الأعلى { ذلك تقدير العزيز العليم } أي العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم قال ابن جرير حدثنا هناد بن السري حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبي سعيد البقال عن عكرمة عن ابن عباس قال هناد : قرأت سائر الحديث أن اليهود أتت النبي

صلى الله عليه وسلم فسأله عن خلق السموات والأرض فقال صلى الله عليه وسلم : [خلق الله تعالى الأرض يوم الأحد ويوم الإثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران فهذه أربعة] قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين { لمن سأله قال وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه وفي الثانية ألقى الافة على كل شيء مما ينتفع به الناس وفي الثالثة آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر ساعة] ثم قالت اليهود ثم ماذا يا محمد قال [ثم استوى على العرش] قالوا قد أصبت لو أتممت قالوا ثم استراح فغضب النبي صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا فنزل { ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب * فاصبر على ما يقولون } هذا الحديث فيه غرابة فأما حديث ابن جريج عن إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة B قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال : [خلق الله التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الإثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة فيما بين العصر إلى الليل] فقد رواه مسلم والنسائي في كتابيهما من حديث ابن جريج به وهو من غرائب الصحيح وقد علق البخاري في التاريخ فقال رواه بعضهم عن أبي هريرة B عن كعب الأحبار وهو الأصح